الفصل الأول

التمثال الذي يشبه الرقم سبعة

كان الكوكب بلا اسم رسمي في سجلات المجرة. يسمونه فقط «الكوكب السابع في القطاع الهادئ»، أو أحياناً «أرض التمثال». سطحه صخري بركاني في معظمه، تتخللها سهول جرداء وفوهات قديمة بعضها عميق كالآبار وبعضها مسطح وخادع. الهواء ثقيل قليلاً، والجاذبية أعلى من أرض الإنسان بنسبة بسيطة، والشمس البعيدة تسكب ضوءاً برتقالياً باهتاً يجعل الظلال طويلة وحادة.

وفي وسط سهل صخري واسع، يقف التمثال.

طوله ثلاثون متراً تقريباً، منحوت من صخرة واحدة داكنة تبدو أقدم من الكوكب نفسه. شكله يشبه الرقم سبعة العملاق، لكن بخطوط انسيابية مذهلة: انحناءة الجذع، ميل الرأس، التواء الذراع الواحدة التي ترتفع كأنما تشير إلى شيء بعيد في السماء. لا توجد ملامح وجه واضحة، ومع ذلك كان الناظر يشعر أن التمثال يحدّق. القوة والجمال والطاقة كانت تشع من كل جزء فيه، كأنها محفورة لا بالأدوات بل بشيء أقدم من الأدوات.

منذ خمس سنوات صنّفه مجلس علماء المجرة رسمياً «المعجزة الرابعة للكون». المعجزات الثلاث الأخرى كانت معروفة: سديم يغنّي، كوكب يدور حول نفسه عكس كل القوانين، وشجرة جذورها تصل إلى نجم. أما هذا التمثال فكان مختلفاً. لم يعرف أحد من نحته، ولا متى، ولا لماذا. لم تُعثر على أي أداة أو مخيم أو بقايا حضارة حوله. فقط هو... يقف منذ زمن يقدّره البعض بعشرة آلاف سنة على الأقل، وربما أكثر بكثير.

تامر رشدي كان يعرف كل شبر فيه.

عالم آثار فضائي في الأربعين من عمره، نحيل، شعره أسود مشوب بشيب خفيف عند الصدغين، وعيناه الرماديتان تحملان إرهاق السنوات الخمس التي قضاها هنا. جاء أول مرة ضمن فريق جيولوجيين يبحثون عن تاريخ التمثال، فاكتشفوا بالصدفة عروق «ماجنت ١٢» تحت قاعدته. المعدن الأندر في المجرة، أغلى من الذهب الذي انقرض على أرض الإنسان منذ قرون، وأقوى من أي مصدر طاقة معروف. لو استُخرج لغيّر موازين القوى بين الكواكب.

لكن تامر رفض.

حارب خمس سنوات كاملة في أروقة مجلس العلماء واللجان البيئية والمجالس التجارية. قال إن التمثال ليس حجراً، وإن بعض الأشياء يجب أن تبقى لأنها تذكّر الكائنات الحية بأن الجمال والزمن أطول من الجشع. في النهاية كسب. صُنّف التمثال معجزة، ونُقل هو وفريق صغير من العلماء المحافظين على البيئة الطبيعية للكواكب إلى هنا... ليدرسوه ويحموه.

الآن كانوا عشرة فقط.

يعيشون في خمس قباب معدنية شفافة معزولة عن الجو الخارجي، متصلة بممرات قصيرة، عند أحد جوانب التمثال مباشرة. القبة الرئيسية تحتوي على غرفة التحكم وأجهزة الرصد والكمبيوترات. القباب الأخرى للمختبرات والنوم والمخازن. الحراسة تعتمد على أجهزة استشعار وأسلحة ليزر خفيفة، لأن أحداً لم يكن يتوقع هجوماً حقيقياً... حتى بدأت الاهتزازات.

منذ أسابيع كانت الأرض تحت قاعدة التمثال تهتز اهتزازات خفيفة منتظمة، كنبض بعيد. لم يتمكن أحد من تفسيرها. تامر كان يسجلها كل ليلة، يدرس الموجات، يقارنها بالبيانات القديمة، ولا يصل إلى شيء. في الليلة السابقة فقط شعر أن الاهتزازات صارت أقرب... وأعمق.

وقف الآن خارج القبة الرئيسية، مرتدياً بذلته الفضائية الخفيفة، ينظر إلى التمثال في ضوء الغروب البرتقالي. خلفه كان المهندس فوزي جابر يراجع أجهزة الاستشعار، والعالمة الشابة ماجدة تسجل ملاحظات عن تغيّر طفيف في درجة حرارة الصخرة عند القاعدة.

قال تامر بصوت هادئ، كأنه يكلم التمثال نفسه:

«أنت صامت منذ آلاف السنين... فلماذا بدأت تتحرك الآن؟».

لم يأتِ جواب. فقط الريح التي تمر بين الصخور، والظل الطويل للرقم سبعة وهو يمتد على السهل كأنه يحاول الإمساك بشيء بعيد.

في تلك اللحظة، على بعد مئات الكيلومترات، كانت عربة صخور كبيرة تتقدم ببطء فوق الأرض البركانية الوعرة، تحمل ستة رجال مسلحين... وأوامر واضحة لا تقبل التأويل.

الفصل الثاني

المعدن الذي يستحق الدم

قبل عشر سنوات لم يكن أحد يعرف شيئاً عن «ماجنت ١٢» على هذا الكوكب.

جاء فريق من الجيولوجيين آنذاك، مدفوعين بفضول علمي بحت، ليحاولوا تأريخ التمثال وتحديد الحضارة التي نحتته. حفروا حول القاعدة بحذر شديد، استخدموا أجهزة الاستشعار العميقة، وأرسلوا روبوتات صغيرة إلى الشقوق الضيقة تحت الصخرة الهائلة. بدلاً من العثور على أدوات أو نقوش أو عظام، وجدوا شيئاً آخر تماماً.

عروقاً معدنية لا نهاية لها تقريباً.

كانت تمتد مئات الأمتار تحت التمثال، متشعبة كجذور شجرة عملاقة، لامعة حتى في الظلام، وتصدر طاقة ضعيفة يمكن قياسها. حللوا عينة صغيرة في المختبر الميداني، فكانت النتيجة صادمة: «ماجنت ١٢»، المعدن الذي انقرض تقريباً في المجرة المعروفة، والذي كانت أونصة واحدة منه تساوي ثروة كوكب صغير. أقوى من أي موصل معروف، قادر على تخزين طاقة هائلة في حجم ضئيل، ويُستخدم في محركات السفن النجمية المتقدمة وأنظمة التسلح الثقيلة.

انتشر الخبر بسرعة البرق.

خلال ستة أشهر كانت شركات التعدين والحفر الكبرى في المجرات قد بدأت تضغط. طلبات امتياز، عروض مالية خيالية لمجلس العلماء، ثم تهديدات مبطنة. قال البعض: انقلوا التمثال. قال آخرون: دمّروه. المعدن أهم. الحضارة تتقدم بالموارد لا بالأحجار القديمة.

تامر رشدي كان عضواً شاباً نسبياً في الفريق آنذاك. وقف في قاعة مجلس علماء المجرة، أمام ممثلين عن كواكب متعددة وشركات عملاقة، وقال كلمته بوضوح:

«إذا دمّرنا كل شيء جميل لأن تحته معدن، فماذا سيتبقى لنا لنحميه؟ التمثال ليس عائقاً... هو تذكير. بعض الأشياء يجب أن تبقى لأنها تجعلنا أكثر من مجرد كائنات جشعة».

حارب خمس سنوات كاملة.

قدم دراسات، جمع توقيعات من علماء آثار وبيئيين وفنانين من عشرات الكواكب، كشف عن محاولات رشوة وتزوير تقارير. تعرّض للتهديد أكثر من مرة. في إحدى الليالي وجد باب شقته على المحطة الفضائية مكسوراً ورسالة قصيرة: «المعدن يستحق أكثر من حياتك». لم يتراجع.

في النهاية كسب.

صوّت المجلس بأغلبية ضئيلة على تصنيف التمثال «المعجزة الرابعة للكون»، ومنع أي نشاط تعديني في دائرة نصف قطرها خمسون كيلومتراً حوله. نُقل تامر وفريق صغير من العلماء المحافظين على البيئة الطبيعية إلى الكوكب... لا ليدرسوا المعدن، بل ليحموا ما فوقه.

لكن الذاكرة لا تموت بسهولة.

الشركات لم تنسَ. التقارير السرية استمرت. والطمع الذي بدأ علمياً ثم تحول تجارياً... كان يبحث عن طريق جديد. طريق لا يمر عبر المجالس والتصويت، بل عبر رجال مستعدين أن يقتلوا ويدمّروا مقابل ثمن مناسب.

الآن، بعد خمس سنوات من الهدوء النسبي، كان تامر يقف كل ليلة يراجع بيانات الاهتزازات تحت القاعدة، ويشعر أن شيئاً ما قد تغيّر. المعدن لا يزال هناك، صامتاً ولامعاً في الظلام تحت أقدام التمثال. والدماء التي قد تُسفك من أجله... لم تعد احتمالاً بعيداً.

في غرفة التحكم، رفع فوزي جابر رأسه من الشاشة وقال:

«الاهتزازات الليلة أقوى بـ ١٢٪ من أمس. هل تريد أن نرفع مستوى الإنذار؟».

تامر نظر إلى التمثال من النافذة الشفافة، ثم هزّ رأسه ببطء:

«ارفعه. وأيقظ الجميع عند الفجر. أشعر أننا لم نعد وحدنا على هذا الكوكب».

الفصل الثالث

التحالف

المكان كان محطة فضائية قديمة مهجورة في مدار كوكب ميت، بعيداً عن أي رقابة رسمية. الجدران معدنية باردة، والهواء يعاد تدويره بصعوبة، والضوء أصفر خافت يبهر العيون. حول طاولة مستطيلة من الفولاذ جلس خمسة رجال، لا يجمعهم دين واحد ولا قومية واحدة، لكنهم اتفقوا على شيء أعمق من ذلك: الكره المشترك لكل ما يعوق السيطرة، والاحتقار الصريح للجمال والمعرفة إذا وقفا في طريق القوة.

الأول كان يتحدث بصوت هادئ مألوف، لحية قصيرة مهندمة، وعينان حادتان: ممثل التيار الإخواني. قال وهو يفتح ملفّاً إلكترونياً أمامه:

«التمثال وثن حديث. يُعبد باسم العلم والفن. من يدافع عنه يدافع عن الشرك المعاصر. دمه مباح إذا وقف في طريق تمكين الأمة».

الثاني، سلفي الجبهة، كان أكثر حدة. أسمال قصيرة، وعينان غائرتان، وصوت يشبه الصرير:

«كل أثر قديم يُعظَّم هو طاغوت. العلوم التي ترفع الحجر فوق الشريعة علوم كفر. والآداب التي تغنّي الجمال بدل الجهاد مفسدة. المعدن تحت التمثال رزق ساقه الله إلينا... ومن منعنا منه فقد حارب الله».

الثالث كان يتحدث بلهجة فارسية مترجمة فورياً، عمامة سوداء خفيفة، وملامح صارمة: ممثل التيار الخميني الراديكالي.

«التمثال رمز للجاهلية الكونية. الفن الذي لا يخدم الثورة وثنية. والعلم الذي لا يُسخَّر للسيطرة علم مستكبر. ندمّره، ونأخذ المعدن، ونحوّله إلى سلاح بيد المستضعفين... بعد أن نُطهّر الطريق من المدافعين عنه».

الرابع كان مبشراً مسيحياً متشدداً من طائفة صغيرة مغلقة، يرتدي بدلة داكنة، ويحمل كتاباً قديماً مغلقاً. قال بصوت رتيب:

«هذا التمثال صنم. كل حضارة ترفعه فوق كلمة الرب تستحق الانهيار. الفنون والآداب التي تمجد الحجر بدل الخالق ضلالة. والمعدن نعمة يجب أن تُنتزع من أيدي غير المؤمنين وتُستخدم لنشر النور الحقيقي... ولو بالقوة».

الخامس كان صهيونياً متطرفاً مرتبطاً بشبكات مال ونفوذ، يتحدث بالعبرية المترجمة، وعيناه الباردتان لا تكادان ترمشان:

«التمثال عقبة أثرية لا قيمة لها أمام المصلحة. العلوم الإنسانية والفنون المفرطة تضعف الإرادة. أي حديث عن توزيع جماعي أو اشتراكي للثروة هو ضعف. المعدن لنا لأنه الأقوى من يستحقه. ومن يحرس التمثال يحرس العدم... ويجب إزالته».

صمت قصير ملأ القاعة. ثم ابتسم ممثل الإخوان ابتسامة رفيعة وقال:

«إذن نحن متفقون. نكفّر من يدافع عن التمثال، نبيح دمه، نبيح تدمير الأثر وبيع ما تحته، ونحتقر كل فن وعلم وأدب لا يخدم سيطرتنا. ونرفض أي منطق يقول إن الثروة يجب أن تُوزع أو تُحفظ للجميع».

أومأ الجميع.

فتح السلفي خريطة ثلاثية الأبعاد للكوكب، وأشار إلى موقع التمثال:

«الرجل المناسب موجود. أدهم فوزي. مرتزق محترف، لا دين له إلا الثمن. معه خبير متفجرات اسمه رضوان، ومجموعة صغيرة مدربة. ندفع لهم ما يطلبون، ونعطيهم الغطاء الأيديولوجي إذا لزم الأمر. العملية يجب أن تبدو كارثة طبيعية أو هجوم نيزكي... لا أثر لنا بعدها».

الخميني أضاف بصوت منخفض:

«بعد تدمير التمثال واستخراج المعدن، نقتسمه حسب الاتفاق. كل طرف يأخذه ليعزّز مشروعه... بعيداً عن أعين المجالس والعلماء الضعفاء».

المبشر المسيحي همس كأنه يصلي:

«ليكن هذا اليوم بداية تطهير جديد».

والصهيوني المتطرف أغلق الملف أمامه وقال بجفاف:

«فقط تأكدوا أن المرتزقة لا يتركون شهوداً. العلماء الذين يدافعون عن الحجر يجب أن يختفوا... تماماً».

في تلك اللحظة، على الكوكب البعيد، كان تامر رشدي يراجع بيانات الاهتزازات مرة أخرى، ويشعر بقلق غامض لا يستطيع تفسيره. لم يكن يعلم أن التحالف قد اكتمل، وأن الثمن قد دُفع، وأن الرجال الستة في طريقهم إليه... حاملين معهم أكثر من مجرد أسلحة ومتفجرات. حاملين خطاباً يرى في الجمال كفراً، وفي العلم ضعفاً، وفي الآثار عقبة... وفي الدم مجرد وسيلة.

الفصل الرابع

تعليمات القتل

أدهم فوزي كان يجلس في غرفة ضيقة داخل محطة فضائية تجارية مزدحمة، حين وصلته الرسالة المشفرة.

الغرفة كانت رخيصة، الجدران تهتز كلما مرت سفينة شحن قريبة، والهواء يفوح برائحة الزيت المحروق. أدهم في أواخر الثلاثينيات، قصير الشعر، عيناه باردتان كفولاذ السفن القديمة، وجسده يحمل ندوب عمليات سابقة لم يتحدث عنها لأحد. فتح الرسالة على جهازه اللوحي، فظهرت خمسة رموز لا أسماء. ثم ظهرت التعليمات بوضوح بارد:

تدمير التمثال الأثري المعروف بالمعجزة الرابعة.

قتل جميع العلماء والحراس الموجودين في الموقع.

جعل العملية تبدو كارثة طبيعية أو سقوط نيزك.

المكافأة: ضعف ما طلبه في عرضه السابق، تُحوَّل على ثلاث دفعات.

التمويل فوري.

ابتسم أدهم ابتسامة قصيرة بلا فرح. قرأ السطر الأخير المكتوب بخط مختلف:

«هؤلاء العلماء يدافعون عن وثن. دمّرهم كما تدمّر الحجر. لا شهود».

أغلق الجهاز. لم يكن بحاجة إلى معرفة أسماء الممولين. كان يعرف نوعهم من لهجة الرسالة: خليط من التكفير والاحتقار والحسابات الباردة. في السابق عمل لشركات تعدين عادية. هذه المرة كانت الرائحة مختلفة... أشد قذارة، وأكثر ضماناً للدفع.

بدأ اختيار الفرقة فوراً.

أول اسم كتبه: **رضوان رشوان**. خبير المتفجرات الأبرز في القطاع كله. رجل نحيل، عصبي، يتكلم قليلاً ويعمل بدقة مجنونة. لا يهتم بمن يدفع طالما أن المواد متوفرة والهدف واضح. كان رضوان يكره الأسئلة الأيديولوجية، لكنه يفهم أن بعض العقود تأتي مغلفة بخطاب ديني أو قومي، فيتجاهله وينفذ.

الثاني: **مرسى شاكر**. طويل، قوي، سريع في استخدام أسلحة الليزر، معتاد على القتل الصامت في الممرات الضيقة. لا يسأل عن السبب.

ثم ثلاثة آخرين: رجلان متخصصان في الاقتحام السريع، وثالث في التشويش على أجهزة الاتصال والرصد. ستة رجال في المجموع، بمن فيهم أدهم نفسه. العدد الكافي لعملية سريعة على كوكب شبه مهجور.

Convening هم في غرفة شحن مهجورة في المحطة نفسها بعد ست ساعات. وضع أمامهم صورة ثلاثية الأبعاد للتمثال والقباب الخمس.

قال بصوت منخفض وواضح:

«المهمة: تدمير هذا التمثال. قتل كل من فيه. لا أسرى. لا شهود. الدفع سخي... والجهة الممولة لا تريد أي أثر يؤدي إليها».

رضوان نظر إلى الصورة طويلاً ثم سأل بجفاف:

«متفجرات من أي نوع؟ والتمثال صخرة واحدة أم مجوف؟».

«صخرة واحدة تقريباً. نحتاج تفجيراً يحوله إلى تراب ويجعل الحفرة تبدو نيزكية. المواد جاهزة في السفينة».

مرسى أضاف مبتسماً ابتسامة خفيفة:

«والعلماء؟ كم عددهم؟».

«عشرة تقريباً. مدنيون في معظمهم. أسلحة خفيفة. لن يشكلوا مشكلة إذا فاجأناهم».

صمت قصير. ثم أخرج أدهم شريحة صغيرة وشغّل تسجيلاً صوتياً مشفراً جاء مع الرسالة. صوت مجهول، هادئ، يتحدث بثقة:

«من يدافع عن هذا التمثال يدافع عن الشرك والوثنية الحديثة. الفنون التي تمجده مفسدة، والعلوم التي تحميه كفر مقنّع، والآثار التي يقدسونها طواغيت. دمّروهم. أتيحوا المعدن الذي تحته لمن يستحقه. لا تتركوا أحداً يروي القصة بعدكم».

أوقف أدهم التسجيل. نظر إلى رجاله واحداً واحداً وقال:

«هذا كل ما تحتاجون معرفته عن الجهة. هم يدفعون، ونحن ننفذ. من لديه اعتراض فليرفع يده الآن ويخرج».

لم يرفع أحد يده.

رضوان فقط تمتم وهو يراجع قائمة المواد المتفجرة على جهازه:

«طالما أن الدفع مضمون... فالوثن أو الحجر أو العالم شيء واحد عندي».

أدهم أغلق الصورة الثلاثية الأبعاد ونظر إلى رجاله للمرة الأخيرة قبل أن يصدر الأمر بالتحرك:

«نغادر خلال ساعتين. الهبوط قبل الفجر. الهجوم مع أول ضوء. لا أخطاء... ولا شهود».

في تلك اللحظة، على الكوكب البعيد، كان تامر رشدي يرفع مستوى الإنذار داخل القباب، ويطلب من الجميع البقاء في حالة استعداد. لم يكن يعلم بعد أن التعليمات قد صدرت، وأن الرجال الستة قد قبلوا المهمة... وأن الدم الذي سيُسفك قريباً قد أُبيح سلفاً بفتوى جماعية من تحالف لا يرى في الجمال إلا كفراً، وفي العلم إلا عقبة، وفي الآثار إلا حجارة تستحق أن تُسحق.

الفصل الخامس

الهبوط على الكوكب

هبطت السفينة الصغيرة قبل الفجر بساعتين، على بعد ثلاثين كيلومتراً من التمثال، في قاع فوهة بركانية قديمة ميتة.

كانت الأرض تحت أقدامهم سوداء ومتشققة، تتخللها عروق حمراء داكنة من حمم قديمة تصلّبت منذ قرون. الهواء ثقيل، حار حتى في ساعات الفجر، ورائحة الكبريت المختلطة بالغبار المعدني تلسع الأنوف رغم خوذات البذلات الفضائية الخفيفة. أدهم فوزي كان أول من نزل من باب السفينة، تبعه رضوان ثم مرسى والثلاثة الآخرون. أغلقت السفينة أبوابها خلفهم واختفت تحت شبكة تمويه إلكترونية تجعلها تبدو كصخرة إضافية في الظلام.

قال رضوان وهو يضبط جهاز التنفس الصناعي في خوذته، صوته يصل عبر الاتصال الداخلي:

«هذا المكان مقزز. على أساس المعلومات... منطقة التمثال أسوأ بقعة في هذا القطاع كله».

أدهم ردّ بجفاف وهو يفحص سلاح الليزر المعلق على كتفه:

«لم نأتِ إلى هنا لنحبه. نؤدي مهمة. اضبطوا درجة الحرارة في البذلات... الجو هنا يطهى الجسد حتى داخل النيتروجين المبرَّد».

تحركت عربة الصخور ذات العجلات المطاطية الكبيرة التي أنزلوها من السفينة. أدهم يقود، رضوان إلى جواره، والأربعة الآخرون في المقعد الخلفي مع صناديق المتفجرات والأسلحة. كانت العربة تقفز وتتمايل فوق الصخور الحادة والفوهات الصغيرة، كل مطبة تجعل المعدات ترتطم بجدرانها الداخلية. في الأمام امتد سهل غير ممهد مليء بفوهات البراكين، بعضها عميق كالآبار، وبعضها مسطح يخفي شقوقاً قاتلة.

مرسى قال من المقعد الخلفي وهو يحدّق في الظلام البرتقالي الباهت:

«كم يبعد التمثال الآن؟».

أدهم أجاب دون أن يلتفت:

«اثنان وعشرون كيلومتراً. نصل قبل الشروق بقليل. نترك العربة على بعد خمسمائة متر، ونكمل مشياً».

الصمت ملأ العربة بعدها دقائق طويلة، لا يقطعه إلا صوت المحرك المكتوم وصرير العجلات على الصخور. رضوان فتح جهازه اللوحي وراجع خريطة المتفجرات مرة أخيرة، ثم تمتم كأنه يكلم نفسه:

«الجهة الممولة قالت: اجعلوه يبدو نيزكاً. سأجعل الحفرة عميقة بما يكفي... حتى لو بقي شيء من التمثال فلن يتعرف عليه أحد».

أحد الرجال في الخلف ضحك ضحكة قصيرة خشنة:

«وهم قالوا أيضاً إن العلماء كفرة يدافعون عن وثن. يسهل القتل حين يكون لديك مبرر جاهز».

أدهم قطع الحديث بصوت حاد:

«لا يهمني المبرر. يهمني التنفيذ. من يتكلم بعد الآن عن كفر أو وثن أو معدن قبل انتهاء المهمة... أتركه هنا على الصخور».

ساد الصمت من جديد.

بعد ساعة ونصف ظهرت ملامح التمثال في الأفق.

كان يقف شامخاً في ضوء الفجر البرتقالي الباهت، ظله الطويل يمتد على السهل كأنه كائن حي يراقبهم. خلفه بدت القباب الخمس المعدنية الشفافة صغيرة وهشة، متجمعة عند أحد جوانبه كبيضات معدنية. أدهم أوقف العربة خلف سلسلة صخور مرتفعة، على بعد خمسمائة متر تماماً كما خطط.

قال وهو يطفئ المحرك:

«من هنا نكمل. الأجهزة الحرارية تظهر عشرة أجسام داخل القباب. معظمهم نيام. نقتحم مع أول ضوء كامل. رضوان... أنت تجهز المتفجرات بعد أن ننتهي من القباب. الباقون معي».

نزل الرجال واحداً تلو الآخر. أخرجوا الأسلحة، ضبطوا خوذاتهم، وتأكدوا من القنابل الفوسفورية الصغيرة المعلقة على أحزمتهم. في الأمام كان التمثال يزداد وضوحاً مع كل دقيقة تمر، خطوطه الانسيابية تلمع كأنها ترفض الغبار والزمن.

مرسى نظر إليه طويلاً ثم قال بصوت منخفض:

«منظر رائع... لا يُنسى».

أدهم ردّ عليه بحدة وهو يرفع سلاحه:

«لم نحضر هنا للإعجاب به. جئنا لنسحقه. تحركوا».

ومشوا في الصمت البركاني، ستة ظلال مسلحة تتقدم نحو المعجزة الرابعة للكون... ونحو الرجال الذين كانوا لا يزالون يعتقدون أن الجمال يمكن أن يُحمى بالعلم وحده.

الفصل السادس

العيون التي تراقب

في القبة الرئيسية كان الضوء خافتاً أزرق، والأجهزة تطن طنيناً منتظماً كقلب آلي.

تامر رشدي لم ينم جيداً منذ أسبوعين. كان يجلس أمام شاشات الرصد ساعة بعد ساعة، يراقب الخطوط البيانية التي تسجل اهتزازات الأرض تحت قاعدة التمثال. في البداية كانت الاهتزازات ضعيفة جداً، أقرب إلى ضوضاء خلفية. ثم صارت منتظمة: نبضة كل ثلاث ساعات تقريباً، خفيفة لكنها أعمق من أي نشاط جيولوجي مسجل على هذا الكوكب.

فوزي جابر دخل الغرفة حاملاً كوبين من القهوة الصناعية، ووضع أحدهما بجانب تامر.

«ما زالت مستمرة؟» سأل.

تامر أومأ دون أن يرفع عينيه عن الشاشة.

«أقوى بـ ١٨٪ من الليلة الماضية. العمق يزيد. كأنها... تصعد».

فوزي جلس إلى جواره وراح يراجع البيانات بنفسه. بعد دقيقة قال بصوت منخفض:

«هل تظن أنها مرتبطة بالمعدن؟ ماجنت ١٢ له خصائص طاقة غير مستقرة أحياناً».

تامر هزّ رأسه.

«لا. المعدن صامت منذ اكتشفناه. هذه الاهتزازات مختلفة. لها إيقاع... كأنها نبض».

في القبة المجاورة كانت العالمة ماجدة تراجع صور الحرارة الملتقطة للتمثال. لاحظت منذ ثلاثة أيام أن درجة الحرارة عند القاعدة ترتفع بمقدار ضئيل جداً كل فجر، ثم تعود. سجلت الملاحظة وأرسلتها إلى تامر مع تعليق قصير: «التمثال يتنفس؟».

الفريق كله كان يشعر بالضيق.

العشرة رجال والنساء الذين اختاروا البقاء هنا لحماية «المعجزة الرابعة» كانوا علماء في الأصل، لا جنوداً. أسلحتهم الليزرية الخفيفة وُضعت في الخزائن منذ سنوات، وأجهزة الاستشعار الخارجية كانت مضبوطة على حركة الحيوانات النادرة أو السفن العابرة، لا على هجوم منظم. لكن الاهتزازات غيّرت شيئاً في الهواء داخل القباب. صار الحديث أقل، والنظرات أطول نحو النافذة التي يطل منها التمثال الأسود العملاق.

في منتصف الليل تقريباً، رفع تامر جهاز الاتصال الداخلي وقال بصوت هادئ:

«الجميع إلى غرفة التحكم خلال عشر دقائق. أريد مراجعة بروتوكول الدفاع».

اجتمعوا. الوجوه شاحبة تحت الضوء الأزرق. شرح لهم البيانات الجديدة، ثم قال:

«لا أريد أن أثيراً الذعر. لكنني أشعر منذ أيام أننا لم نعد وحدنا على هذا السهل. الاهتزازات قد تكون طبيعية... وقد تكون إنذاراً. من الآن فصاعداً: مناوبة مزدوجة على أجهزة الرصد، والأسلحة تُفحص كل صباح، وأي إشارة غريبة تُبلَّغ فوراً».

أحد العلماء الشبان سأل:

«هل تظن أن الشركات عادت؟ بعد خمس سنوات من قرار المجلس؟».

تامر صمت لحظة، ثم أجاب بصوت أهدى من عينيه:

«الشركات قد تعود بوجوه مختلفة. أو بتمويل مختلف. المهم أن نكون مستعدين».

بعد انتهاء الاجتماع بقي تامر وحده أمام النافذة. التمثال كان يقف في الظلام البرتقالي الباهت كأنه يسمع. الاهتزازات عادت في تلك اللحظة تماماً: نبضة خفيفة، عميقة، ارتجت لها الشاشات لثانية واحدة ثم سكنت.

همس تامر كأنه يكلم الصخرة الهائلة:

«إذا كان هناك شيء يستيقظ تحتك... فليكن معنا لا علينا».

لم يأتِ جواب.

لكن على بعد أقل من كيلومتر واحد الآن، خلف سلسلة الصخور السوداء، كانت ستة خوذات لامعة تتحرك في الظلام، وأسلحة ليزر تُضبط للمرة الأخيرة، وعيون باردة تنظر نحو القباب الشفافة التي كانت لا تزال تظن أن الخطر الوحيد يأتي من باطن الأرض.

العيون التي تراقب من الخارج... كانت قد اقتربت أكثر مما يظن تامر.

الفصل السابع

الانفجار الأول

استيقظ تامر رشدي على صوت الانفجار.

لم يكن صوت رعد ولا سقوط نيزك. كان صوتًا حادًا معدنيًا يخترق القبة الرئيسية كسكين ساخنة، يتبعه أزيز مميز لأسلحة الليزر وهي تطلق وابلًا متتاليًا. ارتج السرير تحته، وسقط كوب الماء من الطاولة الجانبية وتحطم. قبل أن يفتح عينيه تمامًا كان قد قفز إلى الأرض، يداه تبحثان عن الحلة الفضائية الواقية وسلاح الليزر المعلق على الجدار.

الصوت الثاني جاء أعنف.

انفجار فوسفوري هذه المرة. الضوء الأبيض الخاطف تسلل من النافذة الشفافة حتى داخل غرفة نومه، وتلاه صراخ مكتوم عبر جهاز الاتصال الداخلي. صوت الحارس المناوب كان مرتجفًا ومكسورًا:

«فرقة... ستة أشخاص... مسلحون بمسدسات الليزر والقنابل الفوسفورية... دمروا المبنى أ والمبنى ب... قتلوا كل من فيهما... يتجهون نحونا الآن!»

تامر ضغط على زر الاتصال الداخلي بقوة حتى كادت أصابعه تنكسر:

«اتصل بفوزي جابر. اطلب منه أن يحضر هو وكل الباقين على قيد الحياة إلى القبة الرئيسية. أحضروا كل الأسلحة والذخائر. سنقيم نقطة دفاعية في غرفة التحكم المركزية. أسرع!»

ارتدى الحلة الواقية بيدين ترتجفان قليلاً من الغضب أكثر من الخوف، وقبض على سلاح الليزر. خرج إلى الممر الضيق الذي يربط القباب. الهواء داخل النظام المغلق كان لا يزال نظيفًا، لكن رائحة الأوزون المحترق بدأت تتسلل من جهة المباني المدمرة. من خلال النافذة الجانبية رأى الدخان الأسود يتصاعد من القبتين الأوليين، والنيران الفوسفورية تلتهم ما تبقى من الجدران الشفافة كأنها تلتهم ورقًا.

فوزي جابر جاء راكضًا من الجهة الأخرى، وجهه شاحب وعيناه واسعتان خلف خوذته الشفافة. وراءه ثلاثة فقط: ماجدة والعالم الشاب كريم والحارس المناوب الذي كان لا يزال يمسك جهاز الاتصال كأنه طوق نجاة.

«الباقون؟» سأل تامر بصوت أجش.

فوزي هز رأسه مرة واحدة فقط:

«ماتوا. كلهم. الاقتحام كان سريعًا ومنظمًا. لم يعطوهم فرصة».

دخلوا غرفة التحكم. الشاشات كانت تعرض صور الكاميرات الخارجية المتبقية. ستة رجال ببدلات فضائية داكنة يتحركون بين الأنقاض بثقة محترفين. أحدهم، طويل ونحيل، كان يوجه الآخرين بإشارات يد سريعة. آخر يحمل صندوقًا معدنيًا ثقيلًا... معدات المتفجرات. الثالث يمسح المنطقة بمسدس ليزر طويل السبطانة، يطلق بين الحين والآخر شعاعًا يقطع أي جهاز استشعار لا يزال يعمل.

تامر تعرف على الطريقة. هذه ليست مجموعة لصوص عاديين أو مرتزقة شركات تعدين تقليدية. الحركة دقيقة، القتل نظيف، والتشويش على الأجهزة احترافي. ومع ذلك كان هناك شيء إضافي في الطريقة التي يدوسون بها على ما تبقى من المختبرات... كأنهم لا يدمرون مباني فقط، بل يمحون شيئًا يكرهونه.

صوت أدهم فوزي وصل عبر مكبر أحد الكاميرات قبل أن يدمره برصاصة ليزر:

«القبة الرئيسية هدفنا التالي. لا تتركوا أحدًا. التعليمات واضحة... لا شهود».

ثم صوت آخر، أحدرج وأكثر حدة، ربما رضوان:

«هؤلاء يدافعون عن وثن من حجر. اجعلوا النهاية سريعة».

تامر أغلق الصوت. نظر إلى من تبقى معه. أربعة أشخاص فقط، وأسلحة ليزر خفيفة مصممة للدفاع ضد حيوانات برية أو لصوص متفرقين، لا ضد فرقة مدربة وممولة بهذا الشكل.

«فوزي... اقلب هذا المقعد واتخذه غطاء. ماجدة... إلى قاعة الملفات الإلكترونية، أطلقي الإشعاعات التشويشية من هناك إن استطعت. كريم... أنت معي عند الباب. الحارس... راقب الممرات الجانبية».

حاول أن يلم شتاتهم. كانوا علماء في الأصل. أيديهم معتادة على الأجهزة الدقيقة لا على أسلحة القتل. لكن لم يكن هناك خيار.

بعد أقل من دقيقة وصل الصياح من الممر الخارجي. ثم ارتطام عنيف. الباب المعدني لغرفة التحكم تحطم إلى الداخل، مفصلياه يتطايران كشظايا، وسقط على الأرض في كومة من المعدن المفتت عند قدمي تامر.

أول من اقتحم كان مرسى شاكر. جسده الطويل ملأ المدخل، مسدس الليزر في يده يطلق وابلًا متقطعًا ومدروسًا. الأشعة الزرقاء القاتلة ارتطمت بالجدران والأجهزة، محولة الشاشات إلى شرارات.

تامر تدحرج جانبًا. شعاع لامس فخذه الأيمن فأحس بحرارة لاذعة وسال الدم داخل الحلة. الغضب طغى على الألم. أطلق من موقعه خلف أكبر أجهزة الكمبيوتر، فأصاب مرسى في الكتف. الرجل ارتد خطوة لكنه لم يسقط. أطلق مجددًا.

في الخلف كان فوزي يصرخ وهو يلقي سلاحه:

«أستسلم! أستسلم!»

قبل أن يخمد صدى صوته دار شيء لامع في قوس سريع داخل الغرفة. قنبلة فوسفورية. انفجرت. الضوء الأبيض ملأ المكان كله، والحرارة اجتاحت ك موجة. الأجهزة تحطمت، والجدران ارتجت، وصرخات قصيرة انقطعت فجأة.

تامر وجد نفسه على الأرض، أذناه تطنّان، الدخان يملأ رئتيه رغم الفلتر. رأى فوزي ورفاقه ممددين بين الشظايا... لم يعودوا يتحركون. رفع رأسه بصعوبة. مرسى كان لا يزال عند الباب، يستعد لإطلاق رصاصة أخرى. وخلفه ظهر أدهم فوزي نفسه، يتدحرج داخل الغرفة بسرعة مذهلة كأنه حيوان مفترس.

تامر جذب ذراع الإطلاق بكل قوته المتبقية.

أصابت الأشعة صدر مرسى مباشرة. الرجل سقط إلى الأمام، ومسدسه انزلق من يده. شيء فضي صغير تدحرج من حزامه... قنبلة فوسفورية أخرى، جاهزة.

أدهم رآها أيضًا. قفز كالأرنب محاولًا الإفلات. لكن تامر كان أسرع هذه المرة. التقط القنبلة، سحب صمام الأمان، وألقاها في وجه الرجل القادم.

الانفجار الثاني كان أقرب.

الضوء الأبيض والحرارة اجتاحا الغرفة من جديد. تامر اندفع من الباب المفتوح إلى الممر المظلم بجانب المختبر، يسحب ساقه المصابة خلفه. خلفه سمع صرخة مكتومة ثم صمتًا ثقيلًا. لم يبق من أدهم ومرسى سوى أشلاء متناثرة بين الحطام.

توقف لحظة واحدة فقط ليلتقط أنفاسه. الدم يسيل من فخذه، والألم يحرق كجمر. لكنه كان لا يزال حيًا. والأهم... أن اثنين من الستة قد سقطا.

ثم أحس بضربة قوية على مؤخرة رأسه.

الظلام جاء سريعًا هذه المرة. قبل أن يفقد الوعي تمامًا سمع صوت رضوان الأجش فوقه، هادئًا وراضيًا:

«الرجل الذي قتل أدهم ومرسى في قتال متكافئ... يستحق موتًا خاصًا. اربطوه. سنأخذه إلى قاعدة التمثال. سيموت جنبًا إلى جنب مع الوثن الذي دافع عنه».

آخر ما رآه تامر قبل أن يغلق الظلام عينيه كان الدخان يتصاعد من القباب المحترقة، والتمثال الأسود العملاق يقف في ضوء الفجر البرتقالي كأنه يراقب كل شيء… صامتًا، قديمًا، ولم يستيقظ بعد.

الفصل الثامن

غرفة التحكم

الغرفة كانت تضيق عليهم.

أربعة أشخاص فقط أمام شاشات ترتعش وتطفئ واحدة تلو الأخرى. الدخان الخفيف بدأ يتسلل من فتحات التهوية، ورائحة الأوزون المحترق تختلط برائحة البلاستيك الذائب. تامر رشدي وقف خلف أكبر أجهزة الكمبيوتر، سلاح الليزر في يده اليمنى، والدم لا يزال ينزف ببطء من الجرح في فخذه داخل الحلة الواقية. الألم كان حاضرًا، لكنه مؤجل. الغضب كان أقوى.

فوزي جابر كان يحاول قلب أحد المقاعد المعدنية الثقيلة ليصنع منه متراسًا. يداه ترتجفان، وعيناه لا تفارقان الباب. ماجدة انحنت فوق لوحة الملفات الإلكترونية تحاول تفعيل نظام التشويش الأخير، بينما كريم والحارس المناوب يتراجعان إلى الزاوية اليسرى، يسددان أسلحتهما الخفيفة نحو المدخل.

تامر قال بصوت منخفض حاد، لا يريد أن يرتجف:

«لا تطلقوا إلا إذا دخلوا. الذخيرة محدودة. استهدفوا الرؤوس أو الصدور. هم ليسوا لصوصًا عاديين… تحركتهم تدل على تدريب عالٍ».

فوزي رفع رأسه، وجهه شاحب تحت الضوء الأزرق المتقطع:

«من هم يا تامر؟ الشركات؟ بعد كل هذه السنوات؟».

قبل أن يجيب تامر وصل صوت من الخارج. صوت أدهم فوزي واضح عبر مكبر أحد الكاميرات التي لم تُدمَّر بعد:

«القبة الرئيسية هي الأخيرة. اقتلوا كل من فيها. لا أسرى... التعليمات صريحة».

ثم صوت آخر، أجش وأحدّ، صوت رضوان:

«هؤلاء يدافعون عن وثن من حجر. يقدسون أثرًا جاهليًا ويسمونه معجزة. دمّروهم كما تُدمَّر الطواغيت. المعدن تحت أقدامهم رزق ساقه الله لمن يستحقه... لا لمن يعبد الجمال والعلم الكافر».

صمت ثقيل ملأ غرفة التحكم لثانية واحدة.

ماجدة رفعت رأسها ببطء، عيناها واسعتان:

«هل سمعتَ؟... وثن... طواغيت...».

تامر أطبق فكه. الآن فهم. لم تكن مجرد شركات تعدين تبحث عن ربح. كان هناك شيء أقدم وأقذر: تحالف يرى في التمثال كفرًا، وفي الدفاع عنه شركًا، وفي العلم الذي يحميه ضعفًا يستحق الموت. الاحتقار كان واضحًا في نبرة الصوت... احتقار للآثار والفنون والمعرفة وكل ما لا يخدم السيطرة.

فوزي همس وقد امتقع وجهه أكثر:

«إنهم لا يريدون المعدن فقط... يريدون محو كل ما نمثله».

تامر نظر إليه ثم إلى الآخرين:

«بالضبط. ولهذا لن نسلم. فوزي... المقعد. ماجدة... إن استطعتِ شغّلي أي إشعاع تشويشي ولو لثوانٍ. كريم... أنت معي عند الباب. إذا سقط أحدنا يكمل الباقون».

حاول أن يلم شتاتهم. كانوا علماء في الأصل. أيديهم معتادة على الأجهزة الدقيقة والنظريات لا على القتل. لكن الصوت الخارجي عاد من جديد، أقرب هذه المرة، وكأن المهاجمين صاروا على بعد أمتار قليلة من الباب:

«العلم الذي يحمي الحجر علم مستكبر. الفنون التي تمجده مفسدة. والآثار التي يرفعونها فوق المصلحة طواغيت. أبيحوا دماءهم... وافتحوا الطريق إلى ما تحت التمثال».

الباب ارتج.

ضربة أولى قوية جعلت المفصلات تصرخ. ثم ثانية. ثم ثالثة حطّمت القفل تمامًا. الباب اندفع إلى الداخل كقطعة معدنية ميتة، وسقط عند قدمي تامر في كومة من الشظايا.

أول من اقتحم كان مرسى شاكر. جسده الطويل ملأ المدخل، مسدس الليزر يطلق وابلًا متقطعًا ومدروسًا. الأشعة الزرقاء ارتطمت بالجدران والأجهزة محولة الشاشات إلى شرارات بيضاء.

تامر تدحرج خلف الكمبيوتر. شعاع لامس فخذه مجددًا فأحس بالحرارة تزداد. أطلق من موقعه. أصاب مرسى في الكتف. الرجل ارتد لكنه لم يسقط.

في الخلف صرخ فوزي وهو يلقي سلاحه على الأرض كأنه لم يعد يطيق حمله:

«أستسلم! أستسلم!»

قبل أن يخمد صدى صوته دار شيء لامع في قوس سريع داخل الغرفة. قنبلة فوسفورية. انفجرت. الضوء الأبيض ملأ المكان كله، والحرارة اجتاحت ك موجة حارقة. الأجهزة تحطمت، والجدران ارتجت، وصرخات قصيرة انقطعت فجأة. فوزي وماجدة وكريم والحارس سقطوا بين الشظايا... لم يعودوا يتحركون.

تامر وجد نفسه وحيدًا على الأرض، أذناه تطنّان، الدخان يملأ رئتيه رغم الفلتر. رفع رأسه بصعوبة. مرسى كان لا يزال عند الباب يستعد لإطلاق الرصاصة الأخيرة. وخلفه ظهر أدهم فوزي، يتدحرج داخل الغرفة بسرعة مذهلة.

تامر جذب ذراع الإطلاق بكل ما تبقى فيه من قوة.

الأشعة أصابت صدر مرسى مباشرة. الرجل سقط إلى الأمام، ومسدسه انزلق. شيء فضي صغير تدحرج من حزامه... قنبلة فوسفورية أخرى جاهزة.

أدهم رآها. قفز محاولًا الإفلات. لكن تامر كان أسرع. التقط القنبلة، سحب صمام الأمان، وألقاها في وجه الرجل القادم.

الانفجار الثاني كان أقرب وأعنف.

الضوء والحرارة اجتاحا الغرفة من جديد. تامر اندفع من الباب المفتوح إلى الممر المظلم بجانب المختبر، يسحب ساقه المصابة. خلفه سمع صرخة مكتومة ثم صمتًا. لم يبق من أدهم ومرسى سوى أشلاء.

توقف لحظة واحدة فقط. الدم يسيل، والألم يحرق، لكنه كان لا يزال حيًا. اثنان من الستة سقطا.

ثم أحس بالضربة على مؤخرة رأسه.

الظلام جاء سريعًا. قبل أن يفقد الوعي تمامًا سمع صوت رضوان فوقه، هادئًا وراضيًا، يحمل في نبرته ذلك الاحتقار نفسه الذي سمعه قبل لحظات:

«الرجل الذي قتل أدهم ومرسى في قتال متكافئ يستحق موتًا خاصًا. اربطوه. سنأخذه إلى قاعدة التمثال. سيموت جنبًا إلى جنب مع الوثن الذي دافع عنه... ومع العلم الكافر الذي يحمي الحجارة بدل أن يخدم القوة».

آخر ما رآه تامر كان الدخان يتصاعد من القباب المحترقة، والتمثال الأسود العملاق يقف في ضوء الفجر كأنه يسمع كل كلمة... صامتًا، قديمًا، ولم يستيقظ بعد.

الفصل التاسع

الباب المحطم

الباب لم يصمد أكثر من ثلاث ضربات.

الأولى جعلت المفصلات تئن. الثانية شقّت القفل. الثالثة حطّمته تمامًا. الباب المعدني اندفع إلى الداخل كجثة هامدة، وسقط عند قدمي تامر رشدي في كومة من الشظايا الحادة والبراغي المتناثرة. الغبار المعدني ملأ الهواء للحظة، ثم جاء الرجال.

مرسى شاكر كان الأول. جسده الطويل ملأ المدخل كجدار متحرك، مسدس الليزر في يده يطلق وابلًا متقطعًا ودقيقًا. الأشعة الزرقاء القاتلة ارتطمت بالأجهزة والشاشات، محوّلة غرفة التحكم إلى شرارات بيضاء وصوت أزيز حاد. خلفه مباشرة ظهر أدهم فوزي، يتحرك بسرعة منخفضة وقاتلة، وعيناه الباردتان تمسحان الغرفة بحثًا عن أي حركة.

تامر كان مستعدًا نسبيًا. تدحرج خلف أكبر أجهزة الكمبيوتر في اللحظة نفسها التي انفتح فيها الباب. شعاع ليزر لامس فخذه الأيمن فأحس بحرارة لاذعة اخترقت الحلة الواقية ووصلت إلى اللحم. الدم سال داخل البدلة، لكن الغضب كان أقوى من الألم. رفع سلاحه وأطلق. أصاب مرسى في الكتف الأيسر. الرجل ارتد خطوة واحدة فقط، ثم ابتسم ابتسامة قصيرة خشنة وأطلق مجددًا.

في الخلف انهار الدفاع بسرعة.

فوزي جابر صرخ وهو يلقي سلاحه على الأرض:

«أستسلم! أستسلم!»

ماجدة حاولت أن تصل إلى لوحة التشويش، لكن شعاعًا أصابها في الصدر فسقطت دون صوت. كريم والحارس المناوب أطلقا بضع طلقات عشوائية قبل أن تسقطهما القنبلة الفوسفورية الأولى. الضوء الأبيض الخاطف ملأ الغرفة كلها، والحرارة اجتاحت ك موجة من الجحيم. الأجهزة انفجرت، والجدران ارتجت، والصرخات القصيرة انقطعت فجأة. عندما انقشع الوهج كان الثلاثة ممددين بين الشظايا... لا يتحركون.

تامر وجد نفسه وحيدًا.

الدخان يملأ رئتيه رغم الفلتر، وأذناه تطنّان من الانفجار. رفع رأسه بصعوبة فرأى مرسى لا يزال عند الباب، يستعد لإطلاق الرصاصة الأخيرة. وخلفه كان أدهم يتدحرج داخل الغرفة كأنه حيوان مفترس، يبحث عن زاوية يطلق منها دون أن يُصاب.

صوت رضوان وصل من الممر الخارجي، هادئًا وممتلئًا بذلك الاحتقار البارد الذي صار مألوفًا الآن:

«انتهوا منهم. هؤلاء يدافعون عن وثن ويسمونه معجزة. العلم الذي يحمي الحجر علم كافر. اقتلوا الأخير... ولا تتركوا شاهدًا».

تامر جذب ذراع الإطلاق بكل قوته المتبقية.

الأشعة أصابت صدر مرسى مباشرة هذه المرة. الرجل سقط إلى الأمام كشجرة مقطوعة، ومسدسه انزلق من يده الميتة. شيء فضي صغير تدحرج من حزامه الجلدي... قنبلة فوسفورية أخرى، جاهزة للإطلاق.

أدهم رآها في اللحظة نفسها. قفز محاولًا الإفلات، لكن تامر كان أسرع. التقط القنبلة بيده اليسرى، سحب صمام الأمان بأسنانه تقريبًا، وألقاها في وجه الرجل القادم بسرعة لا تكاد العين تلاحظها.

الانفجار الثاني كان أقرب وأعنف.

الضوء الأبيض والحرارة اجتاحا الغرفة من جديد. تامر اندفع من الباب المفتوح إلى الممر المظلم بجانب المختبر، يسحب ساقه المصابة خلفه كأنها لم تعد جزءًا منه. خلفه سمع صرخة مكتومة ثم صوت ارتطام أجساد ممزقة بالحطام. لم يبق من أدهم ومرسى سوى أشلاء متناثرة بين ما تبقى من الأجهزة.

توقف لحظة واحدة فقط ليلتقط أنفاسه. الدم يسيل بغزارة الآن، والألم يحرق كجمر موضوع على العصب مباشرة. لكنه كان لا يزال حيًا. اثنان من الستة سقطا. الأربعة الباقون لا يزالون في الخارج.

ثم أحس بالضربة.

شيء صلب وعنيف هبط على مؤخرة رأسه من الخلف. الظلام جاء أسرع من أي شيء آخر. قبل أن يفقد الوعي تمامًا سمع صوت رضوان فوقه، قريبًا وراضيًا، يحمل في نبرته ذلك المزيج نفسه من الاحتقار والحساب البارد:

«الرجل الذي قتل أدهم ومرسى في قتال متكافئ... يستحق موتًا خاصًا. اربطوه جيدًا. سنأخذه إلى قاعدة التمثال. سيموت جنبًا إلى جنب مع الوثن الذي دافع عنه، ومع العلم الذي يرفع الحجر فوق القوة. لا شهود... كما أمر التحالف».

آخر صورة علقت في وعي تامر قبل أن ينطفئ كل شيء كانت الدخان يتصاعد من القباب المحترقة، والتمثال الأسود العملاق يقف في ضوء الفجر البرتقالي... صامتًا، قديمًا، ويبدو للحظة قصيرة كأن ظلّه قد تحرك.

الفصل العاشر

عند قاعدة التمثال

الألم كان أول شيء يعود.

ألم في كل عضلة، وفي مؤخرة الرأس كأنه مطرقة لا تزال تهوي، وفي الفخذ حيث الجرح الحراري يحترق ببطء. حاول تامر رشدي أن يحرك ساقيه فلم يستطع. كانتا مقيدتين بحبال غليظة تلتف حول الكاحلين والركبتين. يداه كذلك، معصماه مربوطان خلف ظهره بإحكام يجعل الأصابع تنمل. فتح عينيه ببطء.

كان ممددًا على ظهره فوق الصخرة الداكنة عند قاعدة التمثال مباشرة. السماء فوقه برتقالية باهتة، وشمس الكوكب البعيدة تسكب ضوءًا مائلاً يجعل ظل الرقم سبعة العملاق يغطي نصف السهل. الهواء ثقيل، ورائحة الكبريت مختلطة برائحة المتفجرات الطازجة.

رفع رأسه بصعوبة. على ارتفاع عشرة أمتار فوقه كان رضوان رشوان يتمايل مربوطًا بحبال الأمان على أحد منحنيات التمثال، يثقب الصخرة بمثقاب عالي السرعة. الثلاثة الباقون من الفرقة كانوا موزعين على نقاط أخرى، يحفرون ويضعون الشحنات بعناية محاسبية. كل حركة محسوبة، كل كمية متفجرات موزونة لتبدو النتيجة في النهاية كسقوط نيزك هائل لا كعمل بشري.

صوت رضوان وصل عبر جهاز الاتصال داخل خوذة تامر، أجش وراضيًا:

«إذن فقد استيقظت؟ مرحبًا بعودتك إلى الحقيقة الواقعة... يا عالم الآثار».

تامر حاول أن يبلع ريقه. حلقه جاف كالتراب.

«لماذا أبقيتموني حيًا؟».

ضحك رضوان ضحكة قصيرة وهو يفك حبال الأمان وينزل ببطء نحو القاعدة:

«الرجل الذي قتل أدهم فوزي ومرسى شاكر في قتال متكافئ يستحق أن يموت بشكل خاص. أظنك تفهم ما أعني».

«في كلمة واحدة... لا».

نزل رضوان حتى صار يقف فوقه مباشرة. وجهه خلف الخوذة الشفافة كان محمرًا من الجهد، والعرق يغمر جبينه. نظر إلى تامر نظرة رجل ينهي عملًا روتينيًا ثم قال:

«من وجهة نظرك أنت بطل. قاتلت بكل ما أوتيت من قوة من أجل تلك الكتلة الصخرية. والحق أنه من المؤسف أنك خسرت. لكن بعد هزيمتك أصبح لدي عمل مهم يجب أن أتمه... ثم أعطيك المكافأة التي تستحقها بجدارة: أن تموت جنبًا إلى جنب مع الشيء الذي دافعت عنه. فعندما أفجّر هذا التمثال سوف تذهب معه إلى الجحيم».

تامر نظر إلى الأعلى. الآن فهم لماذا وُضع هنا بالذات. بعد دقائق قليلة سُيدفن إلى الأبد تحت كومة من التراب والأحجار المتفتتة. ومع ذلك كان هناك شيء غريب في صدره... ليس خوفًا فقط، بل شعور بالاكتمال. التمثال أعطاه ساعات من المعنى أكثر مما أعطاه أي شيء آخر في حياته. بدا مناسبًا بشكل ما أن تقترن نهايته بنهاية هذه المعجزة القديمة.

همس لنفسه بصوت بالكاد يُسمع:

«معًا في قبر واحد».

رضوان سمعه. انحنى قليلاً وقال بصوت أخفض، وكأنه يشرح درسًا لتلميذ بطيء الفهم:

«أنت لا تزال لا تفهم. هذا ليس مجرد تمثال. هذا وثن. يُعبد باسم العلم والفن والتاريخ. من يدافع عنه يدافع عن الشرك المعاصر. الجهة التي دفعت لنا ثمن هذه

العملية واضحة: دمكم مباح، والأثر يستحق أن يُسحق، وما تحته من معدن هو رزق ساقه الله... أو القوة... لمن يستحقه. لا توزيع جماعي، لا حديث عن تراث للجميع، لا اشتراكية ضعيفة ترفع الحجر فوق المصلحة. الفنون التي تمجده مفسدة، والعلوم التي تحميه كفر مقنّع، والآداب التي تغني جماله ضلالة. نحن نزيل العقبة... ونفتح الطريق».

صمت لحظة، ثم أضاف وهو يستقيم:

«كل طرف في التحالف له اسمه وفتواه، لكنهم متفقون على شيء واحد: من يقف بيننا وبين المعدن يجب أن يُمحى. وأنت وقفت».

تامر أغلق عينيه للحظة. صورة القباب المحترقة مرت أمامه، ووجوه فوزي وماجدة والآخرين. ثم فتحهما مجددًا وحدق في رضوان:

«وأنتم؟ ماذا ستأخذون غير المال؟ كل واحد من مموليكم سيكفّر الآخر في اليوم التالي... بعد أن يقتسموا الغنيمة».

رضوان هز كتفيه بلا مبالاة:

«ذلك شأنهم. أنا أنفذ وأقبض. الوثن أو الحجر أو العالم... شيء واحد عندي طالما أن الدفع مضمون».

التفت إلى رجاله ورفع يده:

«انتهينا من النقاط العليا. انزلوا. نشعّل الصمامات من القاعدة».

نزل الثلاثة الآخرون ببطء، والحبال تصرّ. واحدهم مرّ بجوار تامر ونظر إليه نظرة قصيرة فارغة، كأنه ينظر إلى حجر إضافي على الأرض. بدأوا يربطون الأسلاك الأخيرة عند القاعدة، على بعد أمتار قليلة من جسد تامر المقيد.

رضوان وقف فوقه مرة أخيرة وقال:

«بعد قليل سيهتز كل شيء. لن تشعر بالألم طويلاً. اعتبرها رحمة... أو اعتبرها نهاية الوثن الذي أحببته».

ثم ابتعد ليشرف على اللحظات الأخيرة.

تامر بقي ممددًا، ينظر إلى السماء البرتقالية وإلى الخطوط الانسيابية للتمثال الذي يمتد فوقه كأنه يحاول أن يحميه حتى في اللحظة الأخيرة. الهمس القديم الذي كان يسمعه في الليالي السابقة عاد لثانية واحدة... نبضة خفيفة تحت الصخرة، عميقة، كأنها جواب.

أغلق تامر عينيه. وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة شاحبة.

كان مستعدًا.

الفصل الحادي عشر

اللحظات الأخيرة

الصمت كان أثقل من الحبال.

تامر رشدي بقي ممددًا على الصخرة الداكنة، مقيدًا كقربان قديم، ينظر إلى السماء البرتقالية الباهتة فوقه. ظل التمثال يغطي نصف جسده، والخط الانسيابي للرقم سبعة يمتد كذراع طويلة تحاول أن تظلل عليه حتى في النهاية. الهواء ثقيل، ورائحة المتفجرات الطازجة تختلط برائحة الكبريت والغبار المعدني. بعيدًا قليلًا كان رضوان والثلاثة الباقون يتحركون بهدوء محاسبي، يفحصون الأسلاك والصمامات للمرة الأخيرة.

لا أحد يتكلم الآن.

انتهى وقت الخطاب والتكفير والاحتقار. بقي التنفيذ فقط.

تامر أغلق عينيه لحظة. مرت أمامه صور السنوات الخمس: الليالي التي قضاها يراجع بيانات الاهتزازات، الصباحات التي كان يقف فيها أمام التمثال يتحدث إليه كأنه يسمع، الوجوه التي رحلت في القباب المحترقة... فوزي وماجدة وكريم والآخرون. ثم مرت

صورة أقدم: القاعة الكبيرة في مجلس علماء المجرة، والصوت الذي رفعه يومها قائلًا إن بعض الأشياء يجب أن تبقى لأنها تذكّرنا بأننا أكثر من كائنات جشعة.

ابتسم ابتسامة شاحبة بلا فرح.

كان يعرف أنه سيخسر. منذ اللحظة التي سمع فيها صوت الانفجار الأول عرف. ومع ذلك لم يندم. التمثال لم يكن حجرًا فقط. كان دليلًا على أن الجمال يمكن أن يصمد عشرة آلاف سنة في وجه الزمن والجشع والخطابات التي ترى في كل شيء إما رزقًا يُنتزع أو وثنًا يُسحق. حتى لو سُحق اليوم، فقد صمد طويلًا... وهذا بحد ذاته انتصار.

فتح عينيه. رضوان كان يقف على مسافة عشرة أمتار، يراجع جهاز التفجير عن بعد. أحد الرجال يربط السلك الأخير عند القاعدة، والاثنان الآخران يتراجعان إلى الخلف حاملين الأدوات. كل شيء جاهز. الحفرة التي ستُفتح بعد لحظات صُممت لتبدو نيزكية تمامًا: عميقة، عشوائية، ولا تترك أثرًا بشريًا يمكن تتبعه.

رضوان التفت إليه للمرة الأخيرة. صوته وصل عبر جهاز الاتصال هادئًا وبلا انفعال:

«انتهينا. بعد دقيقة واحدة. لن تشعر بشيء طويلًا. اعتبرها نهاية سريعة لقصة انتهت منذ أن قررت الدفاع عن حجر».

تامر لم يرد. لم يعد هناك ما يُقال. نظر إلى الأعلى نحو القمة البعيدة للتمثال. الخطوط التي طالما درسها تبدو الآن أقرب، كأن الصخرة نفسها تتنهد. النبضة الخفيفة التي كان يسجلها منذ أسابيع عادت تحت ظهره مباشرة... أعمق هذه المرة، وأوضح. كأنها جواب متأخر.

همس تامر بصوت لا يكاد يسمعه أحد:

«إذا كنت تستيقظ... فليكن الآن».

رضوان رفع يده لرجاله إشارة بالابتعاد النهائي. الثلاثة تراجعوا بسرعة محسوبة حتى صاروا على مسافة آمنة. رضوان نفسه أخذ خطوات إلى الوراء، جهاز التفجير في راحة يده، إصبعه فوق الزر.

نظر إلى تامر نظرة أخيرة وقال:

«وداعًا... يا حارس الوثن».

ثم ضغط.

في اللحظة المحددة تمامًا اهتز التمثال.

اهتزازة خفيفة أولًا، كأنها تنهيدة. ثم شيء أعمق انبعث من القاعدة نفسها، من الأعماق التي كان المعدن ينام فيها، ومن الصخرة التي ظن الجميع أنها ميتة منذ عشرة آلاف سنة. الأرض تحت جسد تامر ارتجت، والغبار ارتفع في موجة صغيرة، وظل الرقم سبعة العملاق تحرك على السهل كأنه كائن يفيق من نوم طويل.

رضوان تجمد في مكانه. الرجال الثلاثة توقفوا. الوجه خلف الخوذة الشفافة امتقع فجأة.

تامر، المقيد على الصخرة، شعر بالابتسامة الشاحبة تتسع على وجهه رغم الألم.

اللحظات الأخيرة لم تكن نهايته فقط.

كانت بداية شيء أقدم بكثير.

الفصل الثاني عشر

الهزة

الزر لم يعمل كما يجب.

في اللحظة التي ضغط فيها رضوان على جهاز التفجير، لم ينفجر شيء. بدلاً من ذلك ارتجت الأرض.

اهتزازة عميقة انبعثت من تحت قاعدة التمثال مباشرة، أقوى بكثير من كل النبضات التي سجلها تامر طوال الأسابيع الماضية. الغبار ارتفع في موجة دائرية، والصخور الصغيرة قفزت من أماكنها، والحبال التي كانت لا تزال مربوطة في المنحنيات العليا اهتزت كأوتار مقطوعة. التمثال نفسه تحرك.

رضوان تراجع خطوة إلى الوراء، جهاز التفجير لا يزال في يده كأنه فقد معناه. الرجال الثلاثة تجمدوا في أماكنهم. أحدهم سقط على ركبتيه من قوة الاهتزاز. صوت صخرة تنزلق على صخرة ملأ الهواء، ثم صوت أعمق... كأنه أنين قادم من باطن الكوكب.

تامر، المقيد على القاعدة، شعر بجسده يرتفع سنتيمترات قليلة مع الموجة ثم يهبط. الألم في رأسه وفخذه تراجع أمام الدهشة. رفع عينيه إلى الأعلى.

القمة كانت تتحرك.

الجزء العلوي من الرقم سبعة، ذلك الامتداد الذي طالما بدا كرأس مائل أو ذراع مرفوعة، بدأ يترنح ببطء. ثم تمدد. الخطوط الانسيابية التي حسبها الجميع منحوتة منذ الأزل أخذت تلين وتنفرج، كأن الصخرة الصلبة صارت لحمًا حجريًا يستيقظ. شيء ما انفرد هناك في الأعلى، وارتفع، ودبت فيه حيوية مفاجئة بعد سبات عشرة آلاف سنة.

رضوان رفع رأسه إلى الأعلى، ووجهه خلف الخوذة امتقع حتى صار بلون الرماد:

«ما هذا؟ ما الذي يحدث هنا؟»

تامر أجاب بصوت أجش، لكنه كان يحمل في داخله شيئًا أقرب إلى الفرح المر:

«لا أدري... هذه الهزات كانت تحدث بانتظام طوال الشهر الماضي. كنت أقوم ببحثها واستقصاء أسبابها عندما هاجمتونا. لم تكن طبيعية... لم تكن أبدًا».

فجأة حدث شيء لا يصدقه العقل.

القمة العليا للتمثال ترنحت بقوة أكبر، ثم تمددت إلى الأمام كأنها عنق عملاق يستيقظ. جزء من الصخرة انشق ببطء، وكشف عن شكل لم يكن منحوتًا... بل حيًا. رأس هائل بدأ يظهر، ملامحه لا تزال نصف حجرية ونصف متحركة، وعينان لامعتان

تفتحتا للمرة الأولى منذ دهور. الأنياب، طويلة وحادة وبيضاء كالعاج القديم، لمعت في الضوء البرتقالي.

هبّت نسمة غريبة من الأعلى. لم تكن ريحًا عادية. كانت زفيرًا بطيئًا، دافئًا، يحمل رائحة كريهة قديمة كأنها آتية من أعماق الزمن نفسه. الرأس العملاق تحرك ببطء، كأن صاحبه لا يزال يطرد بقايا النوم الثقيل.

رضوان ورجاله تقهقروا إلى الوراء في رعب صريح. أحدهم أفلت جهاز الاتصال فسقط وتحطم على الصخور. الآخر رفع سلاح الليزر بيد ترتجف وأطلق شعاعًا عشوائيًا ارتطم بالتمثال دون أثر. رضوان نفسه كان يتنفس بصعوبة، صوته يخرج مبحوحًا:

«مستحيل... هذا تمثال... صخرة...».

تامر نظر إلى الرأس الذي صار يطل فوقهم جميعًا، وشعر أن الدم يجمد في عروقه ثم يغلي من جديد. الهزات التي درسها ليلًا بعد ليل، النبضات التي ظنها نشاطًا معدنيًا أو جيولوجيًا... كانت نبضات كائن ينتظر اللحظة المناسبة ليستيقظ.

واللحظة جاءت الآن.

الرأس العملاق مال قليلاً إلى الأسفل. العينان اللامعتان، واسعتان وقاطعتان كنجمتين باردتين، ثبتتا على الرجال الصغار الذين كانوا يقفون عند القاعدة... وعلى المتفجرات التي زرعوها في جسده... وعلى العالم المقيد الذي دافع عنه حتى النهاية.

ثم فتح الفم.

الأنين الذي خرج لم يكن صوت صخرة تنكسر. كان صوت جوع قديم، عميق، ومجاعته تمتد عبر عشرة آلاف سنة من السبات.

الفصل الثالث عشر

الاستيقاظ

الرأس لم يكن حجرًا.

ما ظنه الجميع لآلاف السنين منحوتة صامتة كان جلدًا حجريًا سميكًا يغطي كائنًا حيًا. الآن انشق ذلك الجلد ببطء، وتفتت أجزاء منه كقشور قديمة، وكشف عن ملامح لم تُرَ من قبل. الرأس هائل، أعرض من أي مركبة هبوط، يعلوه ما يشبه عرفًا صخريًا متشققًا. العينان لامعتان، لونهما مزيج من الذهب القديم والرمادي البارد، بؤبؤان عملاقان يضيئان من الداخل كأن نجمين صغيرين يدوران فيهما. الأنياب طويلة، منحنية قليلاً، بيضاء كالعاج الذي لم يلمسه نور منذ دهور، وتبرز من فك سفلي ثقيل كان لا يزال يتحرك ببطء ليطرد صلابة السبات.

الزفير الثاني جاء أقوى.

نسمة ساخنة كريهة هبطت على السهل، تحمل رائحة تراب قديم ومعدن صدئ وشيء أعمق... رائحة لحم لم يُذق منذ عشرة آلاف سنة. الرأس مال إلى الأمام، والعنق الحجري الذي كان جزءًا من الرقم سبعة تمدد وازداد طولاً، كاشفًا عن أكتاف عريضة بدأت تنشق من الجذع الرئيسي للتمثال. الغبار تناثر في موجات، والصخور الصغيرة تساقطت من الأعلى كالمطر.

رضوان كان أول من صرخ.

صوته خرج مبحوحًا ومكسورًا عبر أجهزة الاتصال:

«أبعدوا... أبعدوا عنه! المتفجرات... شغّلوها يدويًا إن لزم!»

أحد الرجال الثلاثة رفع جهاز التفجير الاحتياطي بيد ترتجف وأضغط على الزر مرارًا. لا شيء. الدائرة كانت قد انقطعت مع الاهتزازات الأولى، أو أن الكائن نفسه عطّلها بطريقة لا تُفهم. الرجل الآخر أطلق شعاع ليزر نحو العين اليسرى. الشعاع ارتطم بالسطح اللامع وانعكس كأنه اصطدم بمعدن مصقول، دون أن يترك خدشًا.

الكائن لم يغضب. لم يُظهر حتى أنه شعر بالهجوم.

حرّك رأسه ببطء شديد، كأن كل حركة تكلفه جهدًا بعد نوم عميق جدًا. العينان انتقلتا من رجل إلى آخر، ثم ثبتتا لحظة طويلة على تامر المقيد عند القاعدة. شيء شبيه بالتعرف مرّ في تلك النظرة... أو ربما مجرد فضول جائع. ثم ارتفعت العينان مجددًا نحو الرجال الذين كانوا لا يزالون يحاولون الابتعاد.

تامر شعر بجسده يرتجف رغم الحبال. لم يكن خوفًا فقط. كان أمامه ما درسه طوال خمس سنوات دون أن يفهمه. الهزات لم تكن نشاطًا جيولوجيًا ولا طاقة المعدن. كانت نبضات قلب حجري ينتظر. والتمثال لم يكن معجزة منحوتة... بل كائن اختار أن ينام على شكل رقم سبعة، يحرس ما تحته أو ينتظر من يوقظه بالدم والمتفجرات.

الجوع كان واضحًا الآن.

الفم انفتح أكثر. الأنياب لمعت في الضوء البرتقالي، ومن الحلق العميق خرج صوت منخفض كهدير بعيد، اهتزت له الصخور تحت أجسادهم. لم يكن زئير غضب. كان صوت معدة فرغت منذ عشرة آلاف سنة وتذكرت فجأة أنها تحتاج أن تُملأ.

رضوان تراجع بسرعة، يدفع رجاله أمامه:

«إلى العربة... بسرعة! اتركوا كل شيء!»

لكن المسافة لم تعد كافية.

الجسد العملاق بدأ يتحرر بالكامل. الذراع التي كانت مرفوعة كجزء من الرقم سبعة انفصلت عن الوضعية القديمة وتحركت، أصابع حجرية هائلة انفرجت ثم انقبضت كأنها تختبر قوتها من جديد. الساق اليمنى انشقت من القاعدة، وارتفعت، ثم هبطت على السهل فحدثت فوهة جديدة وارتفع الغبار كعمود. الكائن وقف... أو حاول أن يقف. طوله تجاوز الثلاثين مترًا بسهولة، وظله غطى الرجال الأربعة الصغار كأن ليلًا مفاجئًا سقط عليهم.

تامر، لا يزال مقيدًا، رفع رأسه إلى أقصى ما تستطيع رقبته. العينان العملاقتان عادتا إليه لثانية. في تلك النظرة لم يكن هناك تكفير ولا احتقار للعلم ولا حديث عن رزق أو وثن. كان هناك فقط جوع قديم، وذاكرة أطول من كل التحالفات، وحكم صامت على من جاء بالمتفجرات والقتل إلى مكان كان ينام فيه بسلام.

الكائن فتح فمه مرة أخرى.

هذه المرة لم يخرج أنين. خرج زفير أطول، حار، وجعل الهواء نفسه يرتجف. ثم مال الرأس نحو أقرب الرجال... نحو رضوان الذي كان لا يزال يحاول تشغيل جهاز التفجير كأنه يمسك بطوق نجاة مكسور.

الجوع القديم كان قد استيقظ تمامًا.

والصغار الذين أيقظوه... كانوا يقفون الآن على مائدة العشاء.

الفصل الرابع عشر

الحساب

الكائن لم يسمع شيئًا من خطاباتهم.

لم يسمع عن الوثن ولا عن الشرك ولا عن الرزق الذي ساقه الله أو القوة. لم يسمع عن تكفير العلماء ولا عن احتقار الفنون ولا عن رفض التوزيع الجماعي للثروة. العينان العملاقتان لم تبحثا عن مبررات. رأتا فقط الرجال الذين حفروا في جسده، وزرعوا المتفجرات في لحمه الحجري، وقتلوا من كانوا يقيمون بالقرب منه، وجاؤوا بالسلاح والدم إلى مكان كان ينام فيه منذ عشرة آلاف سنة.

الحساب بدأ بلا كلمات.

الذراع اليمنى ارتفعت ببطء، ثم هوت. الأصابع الحجرية الهائلة، كل واحدة منها أطول من رجل واقف، انقبضت حول أقرب المرتزقة كأنها تلتقط حشرة. الرجل صرخ صرخة واحدة مقطوعة قبل أن ينسحق بين الإصبعين. صوت العظام والدروع الفضائية وهي تتكسر وصل مكتومًا، ثم سقط ما تبقى منه على الصخور ككومة صغيرة لا شكل لها.

رضوان أطلق كل ما في مسدس الليزر دفعة واحدة.

الأشعة ارتطمت بصدر الكائن وتبعثرت كأنها اصطدمت بمعدن مصهور. لا أثر. لا دخان. لا رد فعل غاضب. الكائن ببساطة حرك قدمه اليسرى. الخطوة الواحدة غطت المسافة بينه وبين الرجل الثاني. القدم هبطت. الغبار ارتفع كعمود، وعندما انقشع لم يبق من الرجل إلا بقعة داكنة على الصخر.

الرجل الثالث حاول الركض نحو العربة التي تركت على بعد مئات الأمتار. لم يقطع عشرين خطوة. الذراع الأخرى امتدت، أسرع هذه المرة، وأمسكت به من وسطه ورفعته في الهواء. الرجل كان يضرب ويصرخ ويطلق النار نحو الوجه العملاق. الكائن نظر إليه لحظة قصيرة، كأنما يتفحص نوعًا غريبًا من الفريسة، ثم أدناه من الفم المفتوح. الأنياب أغلقت. الصوت الذي خرج كان رطبًا وقصيرًا. بعد ثانية سقط النصف السفلي فقط على الأرض.

بقي رضوان وحده.

كان يتراجع إلى الخلف، جهاز التفجير لا يزال في يده كأنه يستطيع أن يغير شيئًا. صوته خرج مبحوحًا عبر الاتصال، مكسورًا وخاليًا من كل الثقة السابقة:

«نحن... نحن نفذنا أوامر... المعدن... الوثن...».

الكائن أمال رأسه. العينان اللامعتان ثبتتا عليه. لم يكن هناك فهم للكلمات، ولا اهتمام بها. كانت هناك فقط الحركة التي قام بها هذا الكائن الصغير: الحفر، والزرع، والقتل، والوقوف عند القاعدة وفي يده أداة أراد بها تفجير الجسد الذي استيقظ لتوه.

الذراع ارتفعت للمرة الأخيرة.

رضوان رفع سلاحه وأطلق حتى فرغت الطاقة. الأشعة تلامس الأصابع الهابطة دون أن تبطئها. تامر، المقيد على الصخرة، رأى كل شيء بوضوح مؤلم. رأى الرجل الذي شرح له قبل دقائق كيف أن دمه مباح وكيف أن التمثال طاغوت وكيف أن العلم كفر... يُرفع الآن في الهواء كدمية مكسورة.

الكائن لم يسرع. لم يتعذب. ببساطة أغلق الأصابع.

صوت السحق كان نهائيًا.

عندما فتحت اليد سقط ما تبقى من رضوان رشوان على مقربة من تامر. لم يكن هناك جسد يمكن التعرف عليه. فقط بقايا بدلة فضائية وقطع معدنية ودماء سرعان ما امتصها الغبار البركاني.

الصمت عاد فجأة.

الكائن وقف منتصبًا فوق السهل، ظله يغطي القاعدة كلها. رأسه دار ببطء، يمسح الأفق، ثم انخفض نحو الرجل المقيد الوحيد الذي بقي حيًا. العينان العملاقتان حدقتا في تامر طويلًا. الجوع كان لا يزال هناك، عميقًا وقديمًا، لكنه هذه المرة لم يتحرك فورًا. كأن الكائن يميز بين من جاء بالسلاح ليدمر... ومن كان مقيدًا عند قدميه يدافع.

تامر رفع رأسه بصعوبة، الدم لا يزال يجف على جبينه، والحبال تحفر في معصميه. لم يقل شيئًا. لم يكن هناك شيء يُقال لكائن لا يسمع خطابات البشر.

الحساب مع الذين أيقظوه بالدم والمتفجرات... كان قد انتهى.

والعينان اللامعتان لا تزالان تنظران إليه.

الفصل الخامس عشر

تامر والكائن

الكائن لم يقتلْه فورًا.

وقف فوقه كجبل حي، الرأس الهائل مائل إلى الأسفل، والعينان اللامعتان تحدقان فيه دون أن ترمشا. الظل غطى تامر بالكامل، فصار الضوء البرتقالي مجرد حافة بعيدة على أطراف السهل. الهواء بين الاثنين كان ثقيلًا برائحة الزفير القديم، والغبار لا يزال يتساقط من الشقوق التي فتحت في الجسد الحجري.

تامر حاول أن يتحرك. الحبال كانت لا تزال مشدودة، لكنها ارتخت قليلًا بسبب الاهتزازات العنيفة. تمكن من ثني ركبتيه ودفع جسده إلى الخلف سنتيمترات قليلة حتى استند إلى جزء بارز من القاعدة. الألم في فخذه وفي رأسه عاد بقوة، لكنه تجاهله. رفع عينيه إلى الوجه العملاق.

لم يكن هناك غضب في النظرة. ولا شفقة. كان هناك شيء أقدم من العواطف البشرية... فضول بطيء، وجوع لم يُشبع بعد بالكامل، وذاكرة تمتد عبر عصور لم يعشها بشر. الكائن رأى الرجال الذين حفروا وزرعوا وقتلوا فمحاهم. الآن يرى الرجل

الذي كان مقيدًا بينهم، والذي لم يطلق نارًا عليه، والذي كان دمه يسيل على الصخرة نفسها.

ثوانٍ طويلة مرت بلا حركة.

ثم حدث شيء غريب.

الكائن مدّ إصبعًا واحدًا. الإصبع الحجري، أطول من جسد تامر كله، اقترب ببطء شديد حتى لمس الحبل الذي يربط معصميه. لم يقطعْه بقوة. مرّره برفق نسبي، فانفرطت العقدة وتساقطت الحبال. تامر شعر بالدم يعود إلى أصابعه كالإبر. رفع يديه المرتجفتين، ثم رفعهما أعلى قليلًا... لا ليدافع، بل كأنه يحاول أن يُري أنه فارغ اليدين.

همس، صوته أجش وخافت، لا يدري إن كان الكائن يسمع أو يفهم:

«لم آتِ لأسرق... ولم آتِ لأحطم. كنت أحرسك».

الرأس مال درجة أخرى. العينان ثبتتا عليه بعمق أكبر. تامر شعر أن شيئًا يمر بينه وبين هذا الكائن... ليس لغة، ولا أفكارًا واضحة، بل إحساسًا مشتركًا بالزمن. الزمن الطويل الذي نام فيه الكائن، والزمن القصير الذي قضاه هو يدافع عن شكل ظنه منحوتة. كلاهما كان يحمي شيئًا: الكائن يحمي سباته وما تحته من معدن أو سر، وتامر كان يحمي الجمال الذي رآه في الخطوط الانسيابية والوقوف الشامخ وسط السهل الميت.

الكائن زفر مرة أخرى. النسمة الساخنة مرت فوق تامر فجعلت شعره يتحرك وملابسه تلتصق بجسده. ثم رفع الإصبع نفسه ومدّه نحو صدر تامر، دون أن يلمسه. توقف على مسافة قريبة. تامر لم يتراجع. بقي مكانه، يتنفس بصعوبة، وينظر إلى العينين اللتين كانت فيهما نجوم باردة تدور ببطء.

في تلك اللحظة فهم شيئًا لم يقله أحد في مجلس العلماء ولا في خطابات التحالف.

الحماية ليست ملكًا لأحد. ليست للعلم وحده، ولا للدين، ولا للقوة، ولا للجشع. الحماية كانت هنا قبل أن يصل أيٌّ منهم، ونامت على شكل رقم سبعة تنتظر من يوقظها بالدم أو بالاحترام. الذين جاؤوا بالمتفجرات والتكفير والاحتقار للجمال... حُسبوا. والذي بقي مقيدًا يدافع حتى النهاية... أُبقي عليه، ولو لحظة.

الكائن سحب إصبعه ببطء. ثم رفع رأسه ونظر إلى الأفق البعيد، حيث كانت العربة لا تزال مركونة خلف الصخور، وحيث كان الفضاء مفتوحًا فوق الكوكب الذي لا اسم له. الجوع لم يختفِ، لكنه تأجل. شيء آخر كان يتحرك داخل الكائن الآن... ربما ذاكرة أقدم، أو قرار لم يُحسم بعد.

تامر رفع يده إلى جرحه في الفخذ وضغط عليه. الدم كان قد جف تقريبًا. نظر إلى الأعلى مرة أخيرة وقال بصوت أوضح قليلًا:

«إن كنت ستبقى مستيقظًا... فاحرس ما تبقى. وإن عدت إلى النوم... فنام بسلام».

الكائن لم يرد. لكنه لم يقتلْه أيضًا.

بدلاً من ذلك، اتخذ خطوة واحدة واسعة إلى الخلف، فاهتز السهل كله، ثم جلس ببطء هائل على الأرض، جاعلاً القاعدة القديمة مسندًا لظهره من جديد. الرأس بقي مرفوعًا، والعينان لا تزالان مفتوحتين، تراقبان الرجل الصغير الذي كان يقف الآن حرًا عند قدميه.

لحظة التواصل انتهت.

لكن الفهم المتبادل... بقي معلقًا في الهواء الثقيل بينهما.

الفصل السادس عشر

نهاية الطامعين

على الكوكب لم يبقَ أحد من الفرقة.

الأجساد التي سُحقت أو قُطعت أو اختفت داخل فم الكائن لم تترك أثرًا يمكن التعرف عليه. الريح البركانية كانت تذرو الغبار فوق البقع الداكنة، والمتفجرات التي لم تنفجر بقيت مدفونة في الشقوق كأنها لم تُزرع يومًا. العربة الوحيدة التي جلبوهم عليها كانت لا تزال مركونة خلف سلسلة الصخور، محركها بارد، وأبوابها مفتوحة كفم ميت.

تامر وقف عند حافتها بعد أن قطع المسافة بصعوبة، ساقه المصابة ترفض أن تحمله بسرعة. فتح جهاز الاتصال الداخلي للمركبة وحاول إرسال إشارة استغاثة مشفرة نحو أقرب محطة علمية. الإشارة خرجت ضعيفة، مشوشة بسبب الطاقة الغريبة التي لا تزال تشع من الكائن الجالس عند القاعدة. لم يدرِ إن كانت ستصل.

خلفه كان الكائن لا يزال جالسًا، رأسه مرفوعًا نحو السماء، عيناه مفتوحتين كنجمين باردين. لم يتحرك منذ أن حرر تامر. الجوع تأجل، أو ربما اكتفى بما أخذه.

أما بعيدًا... فقد بدأت الأخبار تصل.

في المحطة الفضائية المهجورة التي عقد فيها التحالف اجتماعه الأول، كان الضوء الأصفر الخافت لا يزال يعمل بصعوبة. الخمسة الذين موّلوا العملية لم يكونوا مجتمعين هذه المرة. كل واحد منهم تلقى التقرير نفسه عبر قنوات مشفرة مختلفة، وفي أوقات متقاربة.

التقرير كان قصيرًا وباردًا:

«الفريق لم يعد. السفينة لم ترسل إشارة العودة. آخر صورة حرارية قبل انقطاع البث أظهرت جسمًا هائلًا متحركًا عند موقع التمثال. لا ناجين مؤكدين. العملية فشلت».

ممثل التيار الإخواني قرأ الرسالة مرتين، ثم أغلق الجهاز ببطء. لحيته القصيرة كانت مرتبة كالعادة، لكن عينيه ضاقتا. همس لنفسه:

«الوثن تحرك... إذن كان أخطر مما ظننا».

السلفي الجهادي تلقى الرسالة وهو في غرفة صلاة صغيرة على سفينة أخرى. رمى الجهاز على الأرض حتى تحطم، وصوت صريره ملأ المكان:

«كفر يمشي على الأرض! كان يجب أن نرسل جيشًا لا ستة رجال. المعدن لا يزال هناك... ولن نتركه لشيطان حجري».

الخميني الراديكالي كان أكثر هدوءًا ظاهريًا. وقف أمام نافذة تطل على نجمة بعيدة وقال للمترجم الآلي بصوت منخفض:

«الاستكبار اتخذ شكلاً جديدًا. سنعود... لكن بحساب أدق. ومن فشل هذه المرة لن يُعذَر».

المبشر المسيحي المتشدد فتح كتابه القديم ووضع يده عليه كأنه يستمد قوة، ثم كتب في سجلّه الخاص:

«الصنم استيقظ. يوم الرب يقترب. هؤلاء الذين ماتوا كانوا أدوات... والأدوات تُستبدل».

أما الصهيوني المتطرف المرتبط بشبكات المال والنفوذ، فقد كان الوحيد الذي ابتسم ابتسامة رفيعة باردة. أرسل ردًا واحدًا قصيرًا إلى الباقين:

«الخسارة محسوبة. المعدن لا يزال تحت الأرض. الفريق التالي سيكون أكبر... وأغلى. ومن يتحدث عن انسحاب الآن يضعف الصف».

الردود جاءت متباينة.

الإخواني طالب بتأنٍ ودراسة جديدة. السلفي طالب بعمل فوري أعنف. الخميني طالب بتنسيق أفضل وغطاء سياسي أوسع. المبشر طالب بصلاة وصبر وتطهير إضافي. الصهيوني طالب فقط بالمال والرجال... بلا خطابات هذه المرة.

في الغرفة الافتراضية التي جمعت أصواتهم بعد ساعات، ظهر الانقسام واضحًا كالشق في الصخر.

«أنتم ضعفاء»، قال السلفي.

«وأنتم متهورون»، رد الإخواني.

«الكل يبحث عن مصلحته»، همس الخميني.

«الرب لا يزال معنا»، قال المبشر.

«المعدن معنا إن دفعنا الثمن»، ختم الصهيوني.

التحالف لم ينكسر تمامًا. لكنه تشقق.

على الكوكب البعيد، كان تامر يجلس الآن على درجة العربة، ينظر إلى الكائن الذي عاد ليجلس على قاعدته كأنه لم يغادرها عشرة آلاف سنة. الإشارة التي أرسلها ربما وصلت، وربما لم تصل. في الحالتين كان يعرف أن الطامعين لن يتوقفوا. الجشع والتكفير والاحتقار للجمال لا يموتون بموت ستة رجال.

لكن هذه الجولة... انتهت.

ونهاية الطامعين على هذا السهل كانت نهائية ودموية وصامتة كالصخرة التي استيقظت لتحاسبهم.

الفصل السابع عشر

ما بعد الاستيقاظ

مرّت أيام قبل أن تصل أي سفينة.

تامر رشدي بقي وحيدًا على السهل البركاني، يعيش على ما تبقى من مؤن العربة وعلى الماء الذي استخرجه من المكثفات القديمة في القباب المدمرة. ساقه بدأت تلتئم ببطء بفضل الحلة الطبية التي وجدها في المركبة، والجرح في رأسه لم يعد ينزف. كل صباح كان يخرج وينظر إلى الكائن.

الكائن لم يعد إلى الهيئة القديمة تمامًا.

جلس على القاعدة كما كان، لكن الرأس بقي مرفوعًا، والعينين مفتوحتين معظم الوقت. أحيانًا كان يزفر زفيرًا طويلاً فيرتفع الغبار حوله كضباب خفيف. أحيانًا كان يحرك إصبعًا أو يميل رأسه نحو الأفق كأنه يسمع شيئًا بعيدًا في الفضاء. المعدن تحت قدميه بقي حيث هو... صامتًا، لامعًا في الظلام، وأغلى مما كان قبل أن يسفك الدم من أجله.

في اليوم الرابع وصلت إشارة ضعيفة على جهاز العربة. سفينة علمية تابعة لمجلس علماء المجرة كانت في القطاع القريب والتقطت نداء الاستغاثة المشوش. وعدوا بالوصول خلال ثلاثين ساعة.

تامر لم يشعر بفرح كبير. جلس على درجة العربة كما اعتاد، ينظر إلى الكائن الذي أنقذه دون أن يفهم تمامًا لماذا، والذي قتل دون أن يكره، والذي استيقظ لأن أحدًا أيقظه بالعنف.

همس في المرة الأخيرة قبل وصول السفينة:

«إن نمت من جديد... فنام طويلًا. وإن بقيت مستيقظًا... فاحرس ما يستحق الحراسة».

الكائن أمال رأسه قليلاً. العينان اللامعتان ثبتتا عليه ثواني طويلة. لم يكن هناك وعد، ولا تهديد. فقط اعتراف صامت بأن شيئًا قد تغيّر بين الاثنين... وأن الزمن الطويل الذي نام فيه الكائن صار يعرف الآن وجه الرجل الذي دافع عنه حتى النهاية.

عندما هبطت السفينة العلمية، كان تامر ينتظرهم واقفًا. روى ما حدث بكل التفاصيل التي يستطيع أن يثبتها: الفرقة، المتفجرات، التحالف الذي موّلهم، الاستيقاظ، والمصير الذي لقيه الطامعون. العلماء استمعوا في صمت متزايد، وعيونهم لا تفارق الكائن الجالس في الخلفية كجبل حي.

أحدهم همس:

«المعجزة الرابعة... لم تكن منحوتة».

آخر قال:

«والمعدن لا يزال هناك. بعد اليوم لن يجرؤ أحد على الاقتراب بسهولة».

تامر نظر إلى الكائن مرة أخيرة قبل أن يصعد إلى السفينة. الرأس كان قد انخفض قليلاً، والجفون الحجرية بدأت تتثاقل. ربما كان يعود إلى سبات جديد، أعمق هذه المرة، أو ربما كان يختار أن يبقى نصف مستيقظ... حارسًا لما تحته ولما حدث فوقه.

السفينة أقلعت.

من النافذة رأى تامر السهل يصغر، والتمثال-الكائن يصير نقطة داكنة في وسط الضوء البرتقالي. خلف تلك النقطة كان المعدن لا يزال ينام، أغلى وأوضح ثمنًا مما كان قبل أن يسفك الدم. وخلف المعدن، في محطات بعيدة وغرف مشفرة وكواكب أخرى، كان التحالف الذي موّل العملية لا يزال موجودًا... مشقفًا، غاضبًا، ويحسب الخسارة.

دورة الجشع والتكفير والاحتقار للجمال لم تنتهِ.

Downstream فقط في هذا السهل، تحت ظل كائن استيقظ ليحاسب من جاءه بالهدم، ثم عاد يجلس... ينتظر ربما من يأتي بعده.

تامر أغلق عينيه. وعلى شفتيه بقيت تلك الابتسامة الشاحبة التي ارتسمت أول مرة وهو مقيد عند القاعدة.

الحب المستحيل لم يكن بين بشر ونبات أخضر هذه المرة.

كان بين رجل وحيد وكائن من حجر وزمن... وبين الجمال الذي يستحق أن يُحمى، والجشع الذي لا يتعلم أبدًا.

السفينة انطلقت نحو الفضاء.

والكائن، على الكوكب الذي لا اسم له، أغمض عينيه أخيرًا... أو تظاهر بذلك.